العالم السري للمعابد

إن عالمنا عالم سحري يصل فيه الفن الإلهي والجمال الطبيعي في هذا الفن إلى ذرى سامقة تدوخ فيها الرؤوس وتدور، وتأخذ فيه الجوانب الديناميكية التي تشكل أساس وجودنا المادي والمعنوي إيقاعات متناغمة وساحرة من التناسب. عالم يحتضن فيه الجمالُ الكمالَ، ويحتضن الكمالُ فيه الجمالَ. هذا العالم البالغ ذروة الجمال... الذي يذهل العارفين بالجمال، وينتشي فيه المدمنون على الجمال ويثملون... هذا العالم يصل بمعابده وتكاياه وزواياه إلى أبعاد عميقة من السحر.

لقد كان بلدنا على الدوام مثل مراصد على سطح الأرض موجهة إلى اللانهاية، وهو بهذه البيوت المباركة يكتسب هيبة كهيبة البحر المتلاطم الأمواج، ثم تتماوج وتتسع سعة السماء بعقيدة الأبدية، وتسيل إلى قلوبنا. ومن منائر ومآذن جوامعنا الضاربة تواريخها في أعماق التاريخ القديم تسيل عقيدة العبودية وفلسفتها بأصوات الأذان من فوق هذه المآذن فترتجف القلوب وتلتمع العيون. أما عندما كانت المشاعر نقية، والأفكار مرتبطة بالآخرة، والشوارع والدروب آمنة، والأسواق والتجارة نزيهة وبعيدة عن الغش، فإن جمال هذا البلد لم يكن له نظير... كان كأنه قطعة من الجنة، أو زاوية من زوايا السماء.

لقد ألفنا في هذا البلد منذ الأمس إلى اليوم أن ننتظر ساعات العبادة وأن نستمع إلى أصوات الأذان كأنها صرير أبواب السماء. وأن نهرع إلى المعابد -وكأنها منافذ ترصد اللانهاية وترنو إليها- ونمتلئ بدفء العبادة

التي تفتح أمامنـــا عوالم ســـحرية وراء الآفـــاق تتماوج فيها الخيالات.

أجل!.. ففي معظم ساعات الأذان وأوقات العبادة نحس كأن ألوان العالم الآخر، وأنفاس الملائكة -التي تسمو بأرواحنا وتطير بها- تملأ جوانحنا، فينقلب الوجود آنذاك إلى حال تنتشي فيها الأرواح، وينقلب الزمن إلى زمن سحري يحمل لنا جمالا غامضا مليئا بالأسرار. و لم أر مثل بلدي موضعا آخر فيه كل هذا الجمال والسحر الذي يبعث حزنا أخرويا رقيقا في قلوبنا، ولا أعتقد أنني سأجد. ويأخذ هذا الجمال مداه في الأيام الملتحفة بالأسرار التي تنـــزل فيها السماء إلى الأرض، وتنهمر فيها الأضواء من المعابد، ويبلغ الجمال حالا فوق الخيال حيث نعيش سحر الأرض والسماء.

في مثل تلك الأيام الساحرة تنمحي البيوت المبعثرة حول المعابد، وتنمحي الأزقة والمحلات، ولا يبقى هناك سوى المآذن وسوى الكتابات الضوئية -التي تشكل كرنفالا من الأضواء- المعلقة بين هذه المآذن المهيبة التي تبدو وكأن رؤوسها قد بلغت النجوم. وتنهمر من هذه المآذن أصوات لاهوتية عدة مرات في اليوم، وتحيط بكل الأجواء وتنساب فيها، وتدق أبواب الصدور ومنافذها، وتحتضن الجميع وكل شيء، وتتجول به في الآفاق المجهولة والنيرة لأعماق السماوات، بحيث يحس الجميع أنه محاط بأنوار من عالم آخر، ويتعرف كل آن بإقليم آخر للمعرفة الإلهية، ويصل كل آن إلى عتبة أذواق لدنية أخرى. ولو كان على وعي بهذه السياحة الفكرية لعاش في كل آنٍ في جو آخر من أجواء العرفان وبجو آخر من الشعور لم يألفه من قبل.

إن الصوت الحقيقي والموسيقى الحقيقية لهذا البلد التي لا تصمت في أي ساعة من اليوم، والتي تعبر عن نفسها في كل وقت بأبعاد مختلفة، تأتي من هذه المعابد ومن أنوار العبادات التي تسحر دوما روح الإنسان، وتلهمه العشق والوجد، وتزيد من وجد القلوب ونبضها.

تهمس المعابد أحياناً في أعماقنا همسات معان عميقة وخفية تشرح بها

صدورنا، وتشبع حاجات أرواحنا وخيالاتنا، وتقدم للكل حسب عالم فكره ودنياه ما يغني نفسه ويجلب انتباهه.

أحياناً نستمع إلى المعابد بلذة ووجد عميقين كأنها في جوها النوراني تحثنا على رحلة أبدية، فيلفنا قلق من يهمّ برحلة غامضة في طريق سرّي لا نعرف عنه شيئا، فتتصاعد انفعالاتنا وتزداد، وقد نضطرب ويتم فقدُ بعض الترتيب والنظام عندنا، ويظهر بعض الفوضى هنا وهناك. وأحياناً يزداد الجد فنحس بالامتلاء عقب دعاء حار، أو تصفرّ منا الوجوه بخشية دعاء آخر... أحياناً نحس وكأننا نطوي المسافات في الأرض وكأننا في سجال معها، وأحياناً كأننا نذرع السماء ونصل إلى أحوال خارج الزمان وخارج المسافات. ولكن تفكيرنا في جميع هذه الحالات يتركز عليه تعالى في يقظتنا ومنامنا... ندعوه على الدوام ونبحث عن طرق الوصول إليه والاقتراب منه.

يُصدر المعبد على الدوام أصواتا ونغمات مختلفة، ولا يلفه الصمت أبدا... ففي جوّه المضيء هناك على الدوام تمتمة أو همس ما، قد يكون علنيا أو سريا، ولكن لا يستطيع الجميع فهمه. أحياناً يكون هذا الهمس بصورة نغمات مئذنة أو قبة فخمة تلف أفقنا، وتطنّ في كل مكان، ويئنّ كل جانب بصداها المنعكس. وأحياناً تتصاعد من شرفات المآذن أو من منابر المساجد، وتتماوج بلطف في الهواء، وتصل إلى المكان المراد الوصول إليه. وكما ينهمر المطر بعد الوصول إلى درجة معينة من الرطوبة وينـــزل إلى الأرض، كذلك تتحول هذه الهمسات والنغمات وتتضاعف وتنهمر على رؤوسنا كقطرات من الرحمة الإلهية.

أحياناً يلف الغموض والخفاء هذه الأصوات، وتطعم أرواحنا برقة عميقة إلى درجة يخيل إلى الإنسان أنه يســـتمع بهذه الأصوات إلى دار العقبى، ويتحاور ويتسامر مع ما وراء الآفـــاق. وبين فينة وأخرى قد يشعر بالرجفة تســـري في أوصاله، أو يحس برغبة في إطلاق صيحة فـــرح ونشـــوة.

نمر في اليوم الواحد بجوار المعبد عدة مرات، ونتملى منظره، ونتمعن فيه، ونملأ أعيننا منه، ويبدو لنا منظره العام كإنسان رفع يديه إلى السماء بضراعة. أما أروقته فكأنها عباد وصلوا إلى السكينة ووضعوا رؤوسهم على الأرض بخشوع. نافورات الوضوء فيه كأنها رجال يحاسبون أنفسهم ويبكون على الدوام. وطيوره كأنها تئن وعلى أهبة الاستعداد للطيران والهجرة والرحلة إلى بعيد. هذه معانٍ عميقة ذات محتويات مهمة بالنسبة إلينا، بحيث لا نستطيع سماع هذا من أكبر فيلسوف أو أي حكيم يبحث عن حقيقة الأشياء وراء الأستار.

لكي تتم معرفة كيف تنساب هذه المعاني وهذا الجمال الموجود في المعبد وتملأ العيون والأفئدة وتشبعها، وكيف تنفذ إلى أرواحنا مثل موسيقى حالمة، فمن الضروري وصول القلب إلى ساحل الإيمان، والتعود على لغة المعبد الخاصة وفهمها والتعود عليها. عند ذلك يمتزج معنى هذا البناء المبارك إلى قلب الإنسان، ويؤثر فيه إلى درجة بحيث تكون أرواحنا لسان حال جوّه وإقليمه، فتردد وتغمغم بالشيء نفسه من عالم المعاني، وصرح صور الجمال في أي حلقة من حلقات السلسلة الذهبية المرتبطة بها.

المعابد أماكن مباركة ومملوءة بأحاسيس ومعانٍ أكثر من معاني أفضل لوحات عباقرة الرسم. وإذا استطاع الإنسان مشاهدتها وهي مرتبطة مع المعاني التي تحملها يخيل إليه أنه يتجول ويتنـــزه في ردهات سحرية لعالم كعالم الأحلام، ويخطو إلى الأمام وكأنه سيصل إلى الوصال الأبدي بعد خطوات، ثم يكون قيامه وقعوده في ظل الشوق إلى ليلة الوصال ويومه الحبيب.

لقد أصبح المعبد بكل جوانبه بالنسبة لأرواحنا شيئا مؤنسا ومألوفا، وعامرا بالأحاسيس الجياشة والمشاعر الرقيقة. ففي حريمه نســـمع كل مرة شيئا مختلفا، ونحس أحاسيس مختلفة، ونحاول بعبادتنا وأذكارنا التعبير عن هذه الأحاسيس.

في جو المعبد الفوّاح بعطر الحياة الروحية تلتمع أضواء أعماق عوالم كافة السماوات وما وراءها من عوالم الضياء. فهناك مهرجان من أنوار عالم العقبى تبرق على الدوام من شرفاتها وكانها نـــزلت من السماء إلى الأرض، ومن شرفاتها هذه تنعكس على القناديل حواليها، وعلى زينة الكتابات بين المآذن، وتنعكس على ثريات الجامع ثم تسيل إلى قلوبنا. وكلما سالت تعمقت أحاسيسنا واغتنت. ولا تنفكّ الأنوار من الهطول على هذه القلوب المهتدية إلى الحق والتي تملك أحلاما وآمالا وأماني بعدد نجوم السماء.

في هذا العالم الذي صيغت جميع محتوياته ومعانيه من الإيمان ومن الفكر ومن العواطف والأحاسيس والشعر، يحس الإنسان من الصمت العميق في أوقات مراجعة النفس ومراقبتها أصواتا شبيهة بأصوات الجنة... ومن الأضواء التي تلتمع فوق العيون وتنعكس على المشاعر، ومن المعاني الدافئة التي تحيط بالأرواح وتحتضنها، لذة خيالية في ليله ونهاره، وفي صيفه وشتائه.

وحتى في الأوقات التي ينغمس فيها البلد في ظلام دامس نجد أن المعبد يستمر-بأسلوبه الخاص وبلهجته الخفية والسرية وببعده اللاهوتي- بتلاوة شعره الخاص. وبينما يغط كل شيء ويغط الجميع في السبات وفي النوم، وبينما يتصارع الظلام مع الظلام في هذه العهود، يقوم المعبد وهو يلتحف بمزايا العهد الراشد وخصائصه، بأداء وظيفته في إبلاغ معانيه بأبلغ لسان وبأوسع المشاعر.

وهو بعد كل هذا يستمر في كل حال من أحواله... بِصَمْته أو كلامه... بظلاله أو نوره... بمعناه ومادته... في سكب إلهامه -بصمت وهدوء- في صدورنا. ونحن نعتقد أن هذا الروح وهذا الشعر وهذا المعنى الممتزج في جميع القلوب المخلصةسيتجدد على الدوام حتى أفول أعمارنا وغروبها بكل الألوان والأنوار الخاصة به.

أوان الرجوع إلى النفس

بينما كنا نسير نحو مستقبل مفعم بالنـــور بقلوب ملؤها الأمل إذا بنا نسمع أصواتا كريهة ترتفع من اليسار ومن اليمين تدعو إلى عهد مظلم من جديد. سمعنا هذه الأصوات النشـــاز فقلقنا، "أبدأنا نرجع إلى أيام التناحر والشقاق؟" كم كنا معجبين بهم عندما كنا نسمع منهم هذه الكلمات: "احترام الإنسان وتوقيره، وإبـــداء الحب للكل ولكل شيء، والتعامل بكل مرونة وتساهل مـــع العالم كله" كم كانت هـــذه الكلمات ســـاحرة ومعسولة... كم أحببنا كلماتهم هـــذه وكم ضممنا التقدير لها في جوانحنا! أحببناهم وأعجبنا بهم... أعجبنا بكلماتهم ونحن نمشي في طريقنـــا نحو المستقبل بكل ثقة وأمن واطمئنان دون أن يخطر ببالنا ظهور أي مصاعب أو أمور سلبية أمامنا، وإذا بنا نفاجأ بهم وقد انتصبوا أمامنا بكل ما في جعبتهم من حقد ونفور وغضب، وبدأوا -وهم يهاجمون جميع الأطراف- بسد الأفق بأفكارهم السوداء الكالحة، وبنسف كل الجسور وتعطيل كل الطرق. قاموا بكل هذا وهم يتظاهرون بأنهم رسل السلام والنور، وبدأوا بالعاب قذرة تحت هذا الغطاء. وفي أحيان أخرى كشفوا عن وجوههم الكالحة السوداء سواد القطران، وبدأوا يهاجمون الأفكار النيرة، ويشنون عليها حربا شعواء علانية وصراحة. ولم يتوانوا في هذه الحرب عن الافتراء على جميع الأفكار والحركات والفعاليات الإيجابية. والحقيقة أن هؤلاء لم يكونوا بيادق بيد قوى الظلام فقط، بل كانوا أيضا هم الظلام بعينه. وحتى عندما حاولوا

أن يظهروا وكأنهم مع النور ومع الضياء ومن أنصارهما، إلا أنهما كانا في الحالين يمشون وراء الشيطان ويوقدون نار الفتنة.

أجل!.. لقد ترك البعض منا منذ مدة طويلة كل شيء، وتوجه نحو تخريب عاطفة الأخوة والصداقة الموجودة بيننا. لقد دارت رؤوسنا إلى درجة أننا لم ننتبه إلى أننا كنا نهلك أنفسنا بأيدينا. والأنكى من هذا أننا كنا نربط جميع مشاعرنا وأفكارنا وسلوكنا بأحاسيس العداوة والبغضاء. وبدأنا نقوم ونقعد بهذه المشاعر ونتنفس مشاعر الخصام، بينما كنا في حاجة ماسة إلى الأخوة والصداقة. كنا بحاجة إليهما ولكننا لم نكن نستطيع تحقيقهما. ليتنا استطعنا ذلك، ولكن هيهات. ولو كان بإمكاننا تحقيق مثل هذه الأخوة والصداقة بين أفراد هذه الأمة لاستطعنا تجاوز هذه المشاكل والعقبات الكبيرة والضخمة ضخامة الجبال بحملة واحدة، ولأسمعنا صوتنا حتى إلى النجوم في السماء. ولكن لم نستطع، أو بالأحرى لم يَدَعونا نحقق هذا، بل زرعوا الشقاق والنفاق بيننا، فأصبح بعضنا أعداء للبعض الآخر ومصدر همّ وغمّ، وبدأ بعضنا يضرب البعض الآخر، وتحول كل منا إلى شخص يعاني من مأساة هذا العصر. واليوم أصبح البعض منا ضد الجميع وضد كل فكر. فهو ضد كل من لا يفكر مثله، ولا ينفكّ عن معارضته وتشويه سمعته. ولا نفكر أبدا بأننا إن سرنا في مثل هذا الدرب فسنبقى وحيدين وسنكون أسارى نواقصنا، ونحوّل مستقبلنا المملوء أملا إلى كابوس وإلى جحيم. بينما نملك العديد من أسباب القوة تشكل أساسا لآمالنا وعزائمنا. إذن فبعضنا قد غُلبت عقولهم وقابلياتُ التفكر والحكم لديهم من قبل أحاسيسهم وأهوائهم. لذا نراهم يعيشون حالة من التناقض في المشاعر، ويتعثرون على الدوام، ويعيشون أزمة في أفكارهم الرئيسية. فلا يمكن أن يشكل هؤلاء أمة واحدة على الرغم من كونهم أبناء بلد واحد، لأنهم وضعوا أنفسهم في مواضع معينة بحيث يهدم أحدهم الآخر... لا يشكلون أمة واحدة بل يعيشون أسرى في شباك الاختلاف والتساقط، ويموتون وهم أسرى.

ولا أدري، ألم يَحِنْ بعد أوان محاسبة أنفسنا كأمة؟ لأنه إن استمر عدم الإحساس هذا مدة طويلة فإنني أخشى -لا سمح الله- أن ننهدم في المدى القريب ونبقى تحت أنقاض أنفسنا. والحقيقة، يجب ألا نغض الطرف أبداً عن مثل هذا الاحتمال، بل أن نخشاه وأن نعتصم جميعا بحبل الوحدة والتضامن بقوة. إن أبرز خصائصنا كأمة، وأكثرها استحقاقا للتسجيل هي أن كل فرد من أفرادنا يحمل احتراما كبيرا للآخر. وإن أفضل منابع قوتنا هو تساندنا في مستوى القلب والشعور. وكلتا الخاصتين تستندان إلى أننا نقبل الآخرين كما هم ونحترم أفكارهم. وفي هذا الوقت نرسل رسائل الصداقة، ونعدّ برامج العيش مع كل أمم الأرض، فلماذا إذن نضنّ على أنفسنا وعلى أمتنا بعُشر ما نبديه من استعدادنا لفتح الصداقة مع جميع الأمم في العالم؟

ومع أننا نرحب بالصداقة مع الجميع إلا أننا نتساءل: ألا يجب علينا أن نمحو أولا مشاعر العداء والحقد الموجودة فيما بيننا؟ إن وجود مشاعر الحقد والكره والعداء عند أي شخص، سواء أكان هذا متدينا أو رجل علم أو رجل إدارة أو رجل فكر أو زعيم، يعد نقيصة كبيرة وعيبا. وهم بهذا يمثلون ناحية سلبية في نظر الحق تعالى وفي نظر الخلق، وفي نظر هذا الجيل الناشئ.

إن توقير الإنسان واحترامه من موجبات الإنسانية ومن ضروراتها، وحب الإنسان من شروط القرب من الله تعالى ومن الخلق. والذين يستهينون بالناس بتصرفاتهم أو بأقوالهم يُفشون في الحقيقة مستواهم الخُلقي. كما يفشي الذين يحقدون على الإنسان ويكرهونه ويعادونه نوعية ضميرهم ووجدانهم. بينما نرى أن أصحاب الخُلق الرفيع هم من المتواضعين على الدوام، يهبّون كنسيم رقيق في كل مكان، ويستروح بهم الناس. وهم يَعدّون احترام الإنسان ومحبته من أفضل الأشياء وأثمنها. ويرون أن حب الإنسان للآخرين، وكونه محبوبا من قبلهم، أفضل وأثمن من ملك الدنيا.

وأمثال هؤلاء ينذرون حياتهم من أجل حياة الآخرين ومن أجل سعادتهم بكل همة وعزم.

ومن السنن الإلهية أن أمثال هؤلاء الذين يحسنون الظن بالجميع ويحملون نوايا طيبة تجاههم، يحصلون على أضعاف مضاعفة لنواياهم وأفكارهم هذه. ومع أنهم لا يبغون هذا ولا يعنون أن يحصلوا على مقابل لعملهم إلا أنهم يحصلون على عشرة أضعاف ما يقدمونه مستفيدين من مزايا إنسانيتهم. أما الذين تركوا أنفسهم للحقد وللعداء، فإنهم يدمرون قيمهم الإنسانية، ويزيلون موقعهم في قلوب الناس. إن صرف الإنسان عمره في غمار المشاعر السلبية والسيئة عذاب لا يطاق من جهة، ودناءة من جهة أخرى. بينما رؤية الجانب الإيجابي في كل شخص واحتضان الجميع بطولة من جهة، وسمو من جهة أخرى... بطولة في التحكم بمشاعر الحقد والنفور والطمع. وهؤلاء الأبطال هم الذين يسيطرون على أهوائهم فيتخلصون من ذل العبودية للشيطان والعمل تحت إمرته. وفي لحظة واحدة يصبحون عبادا لله أعزاء الجوانب وأسيادا في عالمهم الداخلي.

لقد أصبحنا -كمجتمع- منذ زمن طويل أسرى رغباتنا وعبيدا لأهوائنا، وبدأ معظمنا يتصرف بوحي من الشيطان في قيامه وقعوده، ننزعج من الجميع، وننزعج الجميع. وبهذا الأسلوب من التصرف نبتعد بسرعة -سواء أشعرنا بذلك أم لا- عن قيمنا الإنسانية ونعيش أزمات في أعماقنا. أجل!.. لقد استقرت المشاعر السيئة في قلوب معظمنا، مع أن هذه القلوب عشّ وخيمة للحب. فلم نعد نستطيع الآن حب الآخرين ولا احتضانهم ولا إبداء التسامح والمرونة تجاههم. وأصبحنا نلتذ بالتحطيم والتدمير والتخريب، وكالبوم نقيم أعشاشنا فوق الخرائب، ونهجم على الجميع، ونسرع للتخريب برغبة وشهوة كبيرة، ونتورط بذلك في آثام لا تغتفر نحو الله تعالى ونحو بلدنا ونحو الناس. وأحياناً نقترف هذه السيئات ونحن نحسب أننا نقدم

خدمة نتوقع الشكر والحمد والثناء من الآخرين عليها. والشمس بدأت تطلع كل يوم على ظلم أو على اعتداء وتجاوز أوهذيان، وتمر الليالي حالكات الظلام، وأصبحت حالنا حال مجتمع عقد العزم على اقتراف الآثام. المشاعر الإنسانية بقيت خلف الأهـــواء النفسية بمسافة كبيرة، وتقدمت مقاييسنا الشخصية والمزاجية على المنطق وعلى الموضوعية. أما مشاعر المحبة والتسامح فقد ذبحت تحت خناجر العداوة. أما أعداد الأشخاص الذين أصدرنا بحقهم أحكاما جائرة بأفكار مسبقة فلا يعدون ولا يحصون. وليس من المعلوم ما سنفعله، ومتى سنفعله، ولمن نوجه شتائمنا، ومن سنقوم بإغراقه بالإهانات. فنحن نعيش في دائرة من الجنون وفي مجتمع شيزوفيرينيا، فلا نشبع من الظلم، ولا نخجل من الاعتداء ولا نكف عن اقتراف الآثام...

إثمُ عدمِ احترام الحق، وإثم شعور الكره نحو الناس والنفور منهم، وإثم الاستخفاف بالأفكار، وإثم بذر بذور الفرقة والخلاف في المجتمع، وإثم النظر إلى كل شيء بمنظار أسود، وإثم عدّ الآخرين مجرمين وأنفسنا بريئين، واعتبار الآخرين من أهل النار أو من الرجعيين، وإثم القيام بعرقلة كل خطوة إيجابية، وإثم تخريب القيم الإنسانية... الخ من الآثام. وأنا أعتقد أنه آن الأوان للتوبة من كل هذه الآثام.

إذن تعالوا نتب من كل آثامنا مستغلّين بركة هذه الأيام التي أحاطت بنا، فنبدأ بعيش فترة تطهّر، ونعزم على احترام الآخرين، والحفاظ على جميع القيم الإنسانية، واحترام أفكار الآخرين، وقبولهم على ما هم عليه، وأن ندع النـــزاعات التي حدثت في الماضي ولا نثيرها من جديد، ولا نجعلها وسيلة لنـــزاع جديد أو خصام، وأن ندع تقسيم المجتمع إلى معسكرات مختلفة، بل لنؤكد على الوحدة والتساند على الدوام. فإن كانت قلوبنا لا تزال تنبض ببعض القيم الإنسانية، وإن كانت عضلاتنا لا تـــزال قوية إذن فليحتضن بعضنا البعض الآخر، ولنبحث عن طُرق جمْع ما ســـبق وأن بعثرناه من

أشلائنا هنا وهناك، وكيف نوحد هذه الأجزاء بقوة بحيث لا تنفصل ولا تتجزأ مرة أخرى، ودعونـــا نستنطق لغة القلوب التي تقربنا إلى الناس، وتوصلنا إلى الله، تاركين مشاعر الحقد والعداء التي تقطع علينا الطريق كل حين.

إذا كان المطلوب هو تحويل هذا البلد إلى جنة وارفة الظلال -وأعتقد أنه لا توجد شبهة في هذا الأمر- فلا ينجح في هذا ولا يستطيعه إلا من أقام هذه الجنة في قلبه أولا. فمن لم يستطع تخليص قلبه وعالمه الروحي من قبضة المشاعر والأهواء التي تقلل من مستوى الإنسان، وتخفض من قيمته، فهو أعجز من أن يقدر على هذا، بل لو قُدّر له -على فرض المستحيل- أن يمر من جنات الفردوس لكان من المحتمل أن يفسدها ويشوهها ويقلبها إلى سجون.

دعونا نضع يداً بيد مرة أخرى ونتكلم بقلوبنا ونُسمع النجومَ ما يدور في صدورنا ولا سيما في هذه الأيام التي تتزين فيها الآفاق بالرحمة الإلهية، وتحتضن الأنوار الآتية من وراء الآفاق قلوبنا... نتوحد في هذه الأيام المباركة التي تتردد فيها أنفاس جبريل عليه السلام، وتلتقي فيها الأدواء مع العلل والأمراض.

الصبر

الصبر أساس مهم من أسس السمو إلى الفضيلة، وهو انتصار للإرادة. وعند غيابه لا يمكن توقع تهذيب الروح، ولا العلو للوصول إلى أسرار الذات. بالصبر يتخلص المرء من الارتباط بالتراب وباللحم وبالعظم، ويكون من السعداء المرشحين للوصول إلى عوالم عليا. فإن كان الصبر ممرا ضيقا، وقمة عالية صعبة الاجتياز إلى سلطنة عوالم ما وراء الأفق، فإن جندي الحق الذي عشق تلك العوالم وتوله بها حبا ووجدا هو البطل الذي يتحدى هذه الممرات الصعبة وتلك القمم العالية، ويراها سهولا منبسطة سهلة الاجتياز.

الصبر هو شعور المرء بالتناغم الموجود في ثنايا الفطرة وفهمه وتقليده. أجل!.. إنه جهد لفهم لغة الأشياء والحوادث، ودخول في حوار معها. وما أجلّ الذين يبدون صبرا وثباتا في سبيل إدراك هذه اللغة ومعرفتها، ثم يقومون بتأسيس جسر بين تصرفاتهم وسلوكهم وبين الحوادث المتدفقة عبر سيل الزمن للتوحد مع الطبيعة! وما أسمى هذه الموسيقى الإلهية التي يترنم بها الكون! وما أسمى الإحساس بهذا التناغم ورؤيته، وما أسطع هذه الرؤية!

الصبر هو فهم لفعل الزمن وصروفه وتأثيره في الأشياء، وإدراك أن الزمن يأخذ الحوادث ويلوكها بين أسنانه الحادة ويفتتها ويطحنها، ويقلبها من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل. والذين يعرفون كيف يكونون فولاذا في أحيان وجليدا في أحيان أخرى حيال هذه الإذابة الصامتة للزمن، يستطيعون الوصول إلى بعد آخر في خط جريان الزمن فيتخلصون من العدم. ومن لم يستطع إدراك هذا عصرته يد الزمن.

أجل!.. إن الفطرة تقوم بكسر أرجل الذين لا يعرفونها ولا ينظمون سيرهم حسب قواعدها، وتسحق أرواحهم. بينما تكون لينة كالشمع في أيدي الذين يعرفونها، ويتناغمون مع روحها في سلوكهم وحركاتهم وسكناتهم، ويكسبونها لحنا داوديا.

آه من هؤلاء الأطفال الأشقياء الذين لا يدركون هذا السر... المتعجلين أبدا، الذين لا يدنون من الصبر ولا يتحملونه.

أجل!.. كم من شخص لا يعرف نفسه ولا يفهم الفطرة من الذين قضوا سنوات عديدة وهم يجرون لاهثين، ولكنهم لم يستطيعوا التقدم شبرا واحدا. وكم من أشخاص على الرغم من أنهم يبدون ساكنين هادئين كنهر عميق هادئ، إلا أنهم ساروا خطوة خطوة دون توقف، وتغلبوا على جميع موانع وأستار الظلام، واجتازوا جميع العقبات بطريقة غير متوقعة... بهدوء ودون ضجة أو جلبة... دون مظاهر أو فخفخة... مثل المرجان الذي صادف كل أنواع الآلام في قاع البحر، وغرق في الدم حتى وصل إلى أفق الزبرجد.

تخترق البذرة التربة والصخر بصمت وبثبات حتى تصل نبتتها إلى سطح الأرض، ويعرض البرعم نفسه للشمس مرات ومرات، ثم يواجه هذا البرعم وطأة ظلام الليل مرات ومرات حتى يصل إلى ماهيته ويتفتح. وما بالك بالوليد؟ إنه يبدأ بنطفة صغيرة في رحم الأم تنتقل من ظلام إلى ظلام. إن مسيرها طويلة وتستدعي التأني والتمهل والصبر. أجل!.. إنها تنتقل وتتقلب من شكل إلى شكل، ومن قالب إلى قالب. وبعد تسعة أشهر يخرج الطفل إلى الدنيا بهيئته التامة الخلق.

ثم لننظر إلى خلق هذا الكون العظيم. لقد خلقه الخالق القادر بكلمة "كن"، ثم تقلب المكان والأشياء في يد قدرته مليارات السنوات من طور إلى طور، ومن شكل إلى شكل حتى وصل إلى وضعه الحالي. فما أكثر معاني هذا، وما أكثر عبر هذا الدرس!

إن كل موجود في هذا العالم... كل موجود... ليس إلا انتظارا متسما بالصبر والمقاومة للوصول إلى هدفه خطوة خطوة... دون أي تعجل... ودون أي تغيير في الاتجاه... اتباعا وامتثالا لقوانين الفطرة.

آه من هذا الإنسان المتعجل أبداً!.. أنت الوحيد الذي يبدي نفاد صبر... أنت الوحيد الذي لا يراعي الترتيب الموجود بين الأشياء!.. أنت الوحيد الذي لا يصبر على المسافات عند الصعود، فتحاول صعود عدة درجات في آن واحد وبقفزة واحدة!.. أنت يا من تنتظر النتائج دون أن تراعي الأسباب!.. أنت يا من تضع خيالات وتبني منها قصورا من زجاج وتغرق فيها!.. ثم ينتهي أمرك وتضيع بين ركام الأماني الكاذبة!.. أنت يا من تتحدث دون أن تفكر، ثم لا تأخذ عبرة من الندم الذي يعقبه، ولا تعقل!.. آه لو علمت!.. لو علمت كم تكون بعيدا عن القلب وعن الحب بحالك هذا، وكم تكون قريبا من الشؤم!.. ليتك تأخذ درسا مما يحيط بك من الحوادث التي كل حادثة منها خطيب بليغ، وكل واحدة منها لسان، لتتعلم منها كيف تراعي حق الترتيب والتسلسل الموجود بين الأشياء، وكيف تراعي الأسباب والنتائج!.. وليتك عرفت كيف تلجأ إلى الإيمان والعزم والإرادة وتعيش بها وليس إلى الخيال والتمني!

أنت موجود بقدر صبرك، ومنزلتك عند الحق تعالى هي بقدر صبرك... بقدر الصبر الذي تمارسه في أثناء حياتك باستمرار ودون أي انقطاع... الصبر الذي يقول كتابك الكريم عنه إنه الصبر على الاستمرار في ممارسة أجمل الصفات وأفضل العادات دون هوادة ودون أي توقف... وبقدر ثباتك وقدرة تحملك تجاه القبح وتجاه ما تكره... وأخيرا بمقدار صبرك تجاه النوازل التي تصيبك دون سابق إنذار، أي بقدر ارتباطك بالحقيقة التي يرسمها الشاعر:

إن جاء الجفاء منك...

أو جاء الوفاء...

حبيب إلى النفس...

اللطف منك أو البلاء..

التوجه على الدوام نحو كل ما يعلي المرء، والحذر من كل ما يسفل بالمرء ومقاومته، وأخيرا تحمل كل البلايا والمصائب -التي تنـــزل في وقت غير متوقع وبشكل غير متوقع وتهزك- دون أي يأس أو إحباط... هذا هو الصبر الذي هو أمرّ من العلقم، ولكنه في نهاية المطاف شراب زلال.

الصبر هو الثبات في الموقع، وعدم تركه مهما بلغت الخسائر... هو الثبات في الموقع حتى ولو كنت تذوب مثل شمعة مشتعلة.

أين أنت أيها العزم؟! أين أنت أيتها الإرادة؟! أين أنت أيتها الشهامة؟! أين أنت أيتها البسالة؟! لقد دارت رؤوسنا وداخت من كثرة تغيير الطرق وتبديل الاتجاه... لقد انتهى أمرنا من كثرة تبديل المعشوقين والأخلاء... وأصبحنا دون قبلة من كثرة تبديل المحاريب!

يقول أحد عشاق الحق والحقيقة: "لقد أرشدتني قطة"... قطة كانت تنتظر صيدها أمام جحر طوال الليل حتى الصباح دون أن تطرف لها عين... فما بالك أنت أيها الإنسان!.. قل لي كم انتظرت في محرابك الأبدي دون تحويل نظرك وبصرك، ودون تغيير طورك؟ أجل!.. كم مرة استطعت لم شملك دون غضب أو مرارة بعد تشتت ما نظمته، وتفرق ما جمعته، وداومت "من جديد" على طريقك مرة بعد أخرى؟ وكم من مرة رجعت بعد أن طردت من ديارك، ونفيت من وطنك، واغتربت في أرض الله فعدت ووضعت جبينك على عتبة حبيبك؟ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ

الرَّسُـــولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيب﴾(البقرة: ٢١٤). إنه قريب من الذين يستمرون على الخط نفسه في إظهار العبودية له، ويتحدّون الآثام ويناضلون ضدها، ولا يفقدون أملهم مهما اكفهرت بهم الأجواء، وثارت حولهم الأنواء. أجل!.. إنه قريب ممن يصفه الشاعر:

من دخل طريق العشق هذا...

لا يهاب الموت...

لقد سلكنا طريق العشق،

فلا يهمنا شيء سواه...

obeikandl.com

إحساس آخر بالزمن

لكي نستطيع الإحساس بالشريط الزمني السعيد الذي نعيش فيه حق الإحساس يجب أن تكون الأرواح والضمائر مستعدة لسماع مثل هذه الموسيقى والشعر الآتي من وراء آفاق السماوات. أما الأرواح الفجة من حيث عوالمها الداخلية وبيئاتها الخارجية وأنماط سلوكها الحياتية... أصحاب مثل هذه الأرواح يحسبون أن الزمن عبارة عن تغير الأهلّة لا غير في صفحة السماء.

لقد تلوث الجو العام في أيامنا الحالية بأصوات محطات الإذاعة والتلفيزيون والطائرات والسيارات والبواخر والتراموايات، وبضوضاء الصفارات وجلبة الدعايات والإعلانات، إلى درجة أننا أصبحنا بحاجة إلى عملية جراحية روحية وفكرية. وما لم تتم مثل هذه العملية الجراحية، وما لم يتم التوجه الكامل للآخرة لا يمكن فهم وإدراك سماوية هذه الأشهر المباركة، ويصعب جدا، بل ربما يستحيل سماع الموسيقى الحالمة الآتية من وراء السماوات.

الأرواح النـــزيهة المتطهرة من الأرجاس المعنوية، المستعدة للتحليق في الســـماء، تتسامى أكثر في بعض الليالي في هذا الزمن المبارك، وتشعر بلذة أكثر، وتشم هذه الأيام مثلما تشم وردة عطرة، وتستمع إليها وكانها تستمع إلى موسيقى عذبة، وتنهل منها وكأنها نبـــع كوثر. ويستطيع أكثرنا، بقليل من الانتباه مشاهدة بزوغ هـــذه الشهور المباركة على أفقنا في إطار من السحر والجمال وكأننا نلج إلى غابة من غابات الســـماء أو خليج أو ركن من عالم الآخرة، ويخيل إلينا أننا نســـافر في عوالم أخرى، فتثور عندنا

العواطف والمشاعر، وتفور حتى نكاد نمزق قالبنا البشري، وتكاد حدودنا البشرية لا تسعنا.

والحقيقة أن هذه الحال كانت هي حالنا الطبيعية في زمن من الأزمان. لقد أصبحنا الآن غرباء عن الأشواق الأخروية ولذائذها اللدنية التي كنا ننهل منها نهلا في السابق في كل موسم من مواسم السنة تقريبا. لقد أصبح معظمنا في جوع وظمأ كبيرين من ناحية هذه المشاعر. ولكي نستطيع الاقتراب من تلك المشاعر العميقة السابقة يجب الانسلاخ عن المشاعر اليومية المعتادة، وأن تتطهر أفكارنا مما ألم بها من تلوث، وأن تتعمق آمالنا وتوقعاتنا المستقبلية. فإن نجحنا في تحقيق هذا الأمر استطعنا سماع وشعور العديد من الحقائق الدقيقة السحرية المخبوءة في ثنايا الوجود كل حين، والتي ترقق قلوبنا وتصقلها، وتعيننا على تخطي وتجاوز حدودنا وقابلياتنا، ولا سيما في الأيام المباركة التي تأخذ بيدنا إلى آفاق عالية.

أجل!.. إن الذين يستطيعون الاستماع إلى الوجود من خلال منافذ قلوبهم، تنقلب الأيام والليالي المباركة لديهم إلى شاعر يتكلم بلغة ما وراء هذا العالم، وإلى ملحّن لألحان موسيقى من عالم آخر، فيهمسان في قلوبنا أعذب الكلمات والألحان. وتقوم هذه النسائم التي تهب علينا بإزاحة الصور الأخرى المادية التي تحيط بكياننا المادي لتوصلنا من خلال المنافذ والممرات الخاصة التي تفتحها في أعماق قلوبنا والمطلة على دار العقبى... لتوصلنا إلى السفوح المجهولة للعالم وللطرف الآخر لنغرق في لجة من الوجد. في مثل هذه الأوقات يكون الصباح كأنه سعادة الخطوة الأولى في دخول الجنة، والظهر كأنه أوان التخلص من تعب النهار، ولحظة الفرحة لرؤية الحبيب والتملي بحسنه. ويكون المغرب أوان سعادة المشي لوصال الحبيب عند إقبال الظلام. أما الليل فهو أوان

لأنواع لا يستوعبها العقل والإدراك من ألوان جمال الخلوة. وكل وقت من هذه الأوقات يمر بطعم وبلذة مختلفة ثم يذهب ويغيب.

أما المناسبات المباركة كليلة المعراج، أو ليلة المولد، فهي من الليالي التي تُعَدّ تيجانا على هام الزمن، وذروة الأيام القريبة من الله، أو هي الشواطئ والموانئ المفتوحة نحوه، ومنصات الانطلاق إليه. ففي هذه الأيـــام والليالي المباركة تبرق القلوب بشفافية غير عادية، وتتوجه الأرواح نحو اللانهاية وتطير إليها بشوق آخر، ويشارك كل شيء في الشعر الأزلي لما وراء هذه الآفاق، ويغطي سحر جو العالم الآخر كل جانب، ويغطي كلَّ صدر إيقاعُ ونغمة ضراعة وتوسل لا يستطيع أي لسان التعبير عنه. ويتحول المكان نتيجة بعض التجليات الخاصة إلى أبواب ومنافذ ونوافذ عالم وراء هذا العالم، ويقوم الزمان الـــذي يتبلور بتحول الآمـــال والتطلعات إلى ضراعات وتوسلات، ويبدو القرآن وكأنه نـــزل حديثا، فكل ســـورة وكل مقطع، وكل آية، وكل جملة منه تهدر كشلال تدعو كل أناس إلى حياة جديدة، وتسقي قلوبنا الظامئة إكسير وماء الحياة، وتسير بها في سفوح جبال خضر من جبال الجنة لا ترى إلا في الأحلام، وتهدي لأرواحنا منافع وايجابيات الإيمان. وتظهر معاني تعجز الألسنة عن التلفظ بها أو التعبير عنها.

إلى درجة أن مثل هذه السعة والغنى في الأرواح يطبع بطابعه كل شيء نراه ونحس به، ويطبعنا بطابع الآخرة، فنجد أنفسنا وكأننا في حلقة ذكر مهيبة من أصحاب دار الآخرة، أو كأننا نســـتمع إلى أناشيد من الحور والغلمان في ذلك الفضاء الواسع.

بل يحس بعضنا في بعض الفترات أن هذه الحال من انطباع روحه بهذا الطابع الغني للآخرة يسحبه من النطاق الضيق لأبعاد الزمان لتأخذ به إلى أبواب الجنة التي نتلهف إليها طوال حياتنا، وهنا يشعر وكأنه على شاطئ عالم سحري وسري لم يره أحد أو يسمع به من قبل، ولا يمكن التعبير عنه

بأي كلمات. وفي مثل هذه الحالة الروحية يقوم العالم الموجود وراء عالمنا – حتى وإن لم نفكر أو نتكلم– بتقديم نغمات دون أي كلمات قائلا: "أنا على الدوام في أعماقكم... اهتزاز في آذانكم، وضوء في عيونكم، وسعادة في صدوركم... أنا في أعماقكم وفي الشواطئ المفتوحة على مشاعركم، وفي منطلقاتكم للسمو والارتفاع... تستطيعون –إن أردتم– أن تمتلكونني". ونعتقد أن هذه الأضواء تنهال على قلوبنا من عالم الآخرة ضمن هذه المشاعر الفائرة والمتصاعدة إلى ما وراء هذه الآفاق، بل إلى ما وراء الوراء، ويموج هذا الجو المحيط بنا بالأحاسيس وبالضراعة والدعاء، وبالشموع وبالأضوية الزرقاء والوردية والصفراء الموجودة في الشوارع وفي قناديل الجوامع، وفي أضوية الزينات بين المآذن.[1] ثم هناك هذه المعابد التي نهرع إليها مرة في الأقل كل يوم. وهؤلاء الناس الأطهار الذين نتشارك معهم المشاعر نفسها.

أجل!.. فلكل هؤلاء تقريبا وجوده وروحه ومعناه ولذته الخاصة به وسحره، ونكاد نسمعها كلها، ونحس بها. وعندما ترجع أرواحنا إلى أنفسها بعد أن تمتلئ بهذه المعاني، تستغرق في تمعن وتأمل عوالمها الداخلية العميقة، وتبدأ بالنظر إلى ما حواليها نظرة مختلفة عن السابق.

أجل!.. هذه الأيام المباركة التي يتم فيها الإحساس بالوجود وبالإنسان وبما وراء هذا الوجود إحساسا أفضل وأكمل، تُشعِل في أذهاننا أقوى الأفكار، وتهدهد أجمل الأشعار في أرواحنا، وتفتح أجمل أبواب الإلهام وأكثرها سحراً في أفئدتنا، وتهيئ لنا إمكانية التعبير عن أخفى مشاعرنا.

أحياناً يفضل بعضنا التزام الصمت أمام المهابة التي تجلل هذه الأيام، ويرجع ليتحاسب مع نفسه ومع عالمه الداخلي. ومن يدري فقد يكون هذا

(١) اعتاد الأتراك على كتابة عبارات الترحيب عند حلول مناسبة دينية ولا سيما عند حلول شهر رمضان بأضوية كهربائية بين مآذن الجوامع. (المترجم)

الصمت أبلغ من كل كلام في مجال الثقة والاطمئنان والحب وفتح الحضن للجميع. وأحياناً يكون مثل هذا الصمت المهيب تعبيرا عن المراقبة الداخلية والحس والمعرفة، وأعمق من كل ما يمكن أن يقال من كلام. ولعلنا نحتاج أكثر ما نحتاجه إلى مثل هذا الصمت البليغ والطلق.

وباعتيادنا من قبلُ على تنفس أجواء مثل هذه الأيام المباركة من شريط الزمن فقد نفذت إلى أرواحنا وامتزجت بها إلى درجة أنها ما أن تبدو في الأفق حتى تسري الفرحة والحلاوة في قلوبنا وفي شفاه قلوبنا، وتسري إليها من ألحان المعاني أعذبها وأبلغها وأوسعها، ونرى أن الحبر يتقطر بأنفس الأفكار على صفحات الأوراق، وكأنها نقوش وزينات. وإلى جانب كياننا وأوضاعنا التي نعيشها حاليا، نهذي كحالم بالأيام التي تتفتح كالبراعم من آمالنا ومن إيماننا، ونحسب أننا قد بسطنا أجنحة آمالنا ورغباتنا لنطير نحو عوالم جديدة.

لقد سكن حب هذه الأشهر المباركة والليالي المتميزة فيها، التي ترقى إلى الذرى في قلوبنا المترعة بالإيمان، وأحببناها ونظرنا إليها على الدوام وكأنها أطياف ضوء باهر. وحتى مع مرور السنوات والأعوام –التي قد تتبدل فيها أفكار ومنطلقات الإنسان– فإن هذه الأيام والليالي المباركة لم تفقد بريقها في ذاكرتنا وقلوبنا، ولم تتغير مشاعرنا تجاهها، وبقيت مصدر إلهام لنا على الدوام.

تأملات حول العيد

الأشهر المباركة التي تتقدم على رمضان وتبشرنا بإشـــراقه هي بمثابة مؤشرات وعلامات صامتة وهادئة على قدوم أيام مباركة وظهور بشائرها في الأفق... أيام مليئة بفيوضات تقبل كالسيل الهادر وتحتضن القلوب. ومع اليوم الأول من هذه الأشـــهر المباركة يحس صاحب كل قلب مؤمن أنه مغمور في جو رمضان. فتجده من اليوم الأول مستعرضا جميع مشاعره المتعلقة بعبوديته مدققا لها لكي يستفيد من بركة الشهر الكريم الذي أصبح منه قاب قوسين أو أدنى حق الاستفادة ويستثمره حق الاستثمار. فكأنه نهض من غفوة فأثَر النعاس لا يزال في عينيه، وكلمات من بقايا حلم على لسانه، فيستجمع جهده لتركيز انتباهه وتجميعه حول هذا الموضوع، وتصيّد النغمة القدسية المتآلفة مع هذا التوجه ومع هذا القصد.

عندما تمتلئ القلوب بالمشاعر، وتبلغ الأرواح قوامها، يولد شهر رمضان من رحم الهلال، ولكن بقوة ضياء البدر من خلف البشائر المتعاقبة لهذه الأيام. ويهبّ كألطف نسيم، ويحيط بقلوبنا ويلاطف أرواحنا وأجسادنا برقّة الحرير، ويملأ أعيننا بصور الجمال الشبيهة بجمال سفوح الربيع، ويثير في أفئدتنا رغبة التسامي، ويدع في صدورنا انتفاضة حلوة كانتفاضة عصفور بلّله القطر.

وأخيرا تنتهي هذه الضيافة التي تدوم شهرا، ويودعنا شهر رمضان الذي قدم بعطاياه الكثيرة... يودعنا ولكن الأرواح التي وصلت إلى حياة جديدة والتي اقتبست من نوره، والقلوب التي استغرقت خلاله في التأمل والتفكر،

والتي ارتجفت من خشـــية الله، والقلوب الهائمة التي خرجت تبحث عن مسالك وطرق الوصال؛ تحتضن بدفء أيام العيد هـــذه المرة. وكما يرى الإنسان المبحر بعد قليل أن المياه تحيط بـــه من كل الجوانب، نجد أنفسنا في العيد بعد انقضاء الأشـــهر الحرم الثلاثة في جو من الاطمئنان والسكينة... نحس هذا في أعماقنا، وبكل كياننا، وبكل ماهيتنا الإنسانية.

تبدو صلوات العيد وأصوات التهليل والتكبير وصدقات الفطر لأصحاب القلوب المؤمنة كمنافذ إلى عالم خيالي رائـــع، فينطلقون كقوارب أطلقت أشرعتها للرياح. أجل، إن الجو العام في العيد، والسحر الذي يحيط به وبكل التصرفات والأصوات والحديث يجعل الإنسان يشـــعر وكأنه يرتفع نحو السماء ببطء ويبتعد عن محله ومكانه الذي انطلق منه، ويعيش في مثل هذا الجو الساحر الذي تنهمر فيه الأضواء والأنوار.

في العيد نعيش الماضي والحاضر والمستقبل معا. يهيأ إلينا وكأن هناك سحرا غريبا في الأصوات المرتفعة من المعابد وفي المنازل التي نزورها وفي الأيدي المباركة التي نقبلها... سحرا ما أن نلمسها حتى تتفتح أمامنا منافذ عديدة للماضي. فنجد أنفسنا داخل مسجد قديم نجلس في صف واحد مع أجدادنا وأجداد أجدادنا. وحينما تلتقي شفاهنا بالأيدي الطاهرة نشعر وكأننا قد قبّلنا مئات الأيادي المباركة فنتنشي بفرحة غامرة. وعندما نهنّئ أصدقاءنا وأحبابنا ونضمهم إلى صدورنا نحس وكأننا نضم أحبابنا الذين عاشوا قبلنا وقبل هؤلاء في عهود ســـابقة. كل حركة في العيد وكل فكر وكل تصور وكل كلمة أو حديث وكل تصرف يبعث شريطا زمنيا من أشرطة الماضي، ويحيا ويحيط بكياننا، ويملأ أفقنا، ويصبح ملْكنا، ويهب – حسب درجة ووسعة خيال كل منا– أنموذجا للبعث بعد الموت.

الأعياد في الحقيقة ترانيم قادمة إلينا من أمجاد أجدادنـــا ومن جذورنا المباركة. بسحر هذه الترانيم نصل في كثير من الأحيـــان إلى عوالم ما كنا

لنصل إليها من قبل، إذ ندخل إلى كل مكان بسهولة الأحلام، ونتجول في كل الأماكن بسرعة الخيال طاوين الزمان الذي نعيشه بأزمنة متداخلة بعضها في بعض. أجل، إن الماضي يعود إلينا بكل مجده السابق بدرجة تعايشنا مع سحر شهر رمضان، ويعود كل ما فقدناه من قبل، ونتنفس من جديد رائحة تلك الأيام النقية ونستنشقها بعشق لتمتلئ بها صدورنا، ونرتشف من الينابيع الفياضة الماضية، فنحسب أنفسنا في عالم آخر. وقد يبلغ بنا الاستغراق مبلغا نخال وكأن جميع من في القبور قد بُعثوا، وكل شيء ممزق ومبعثر هنا وهناك أشلاء قد تجمع وتوحد من جديد، ويرجع شتات الزمن الذي انقضى من أعمارنا ليحتضن أرواحنا، ونعيش -بجانب ما نعيشه اليـــوم وما عشناه بالأمس في أعمق الأذواق وأوسعها- في ذكريات لذائذ روحية ساحرة، حتى إن عناصر اللذة والأذواق في هذه النقطة -كما هي في الأحلام- تكون متغيرة على الدوام حسب نياتنا وأفكارنا وميولنا، وتتجدد على الدوام حسب رغباتنا، وتلبس الحال التي نريدها، وبينما كانت هناك رغبة واحدة إذا بها تنقلب إلى ألف. فكل ما شاهدناه وكل ما سمعناه وكل ما أحسسنا به نراه يتغير -بفضل سحر خارق- من شكل إلى شكل. وبذلك ندبم حياتنا بتلونات عديدة من حس لحس، ومن فكر لفكر ومن لذة للذة أخرى.

عندما ينشق فجر يوم العيد تنطلق أصوات التسبيح والتمجيد من المآذن، وفي الدقائق التي يبلغ الجو الروحاني الذروة في كل مكان نشعر بأحاسيس غامضة وسرية تثير خيالنا وتأخذنا إلى الأعماق، بل إلى أعماق الأعماق، وتهمس لقلوبنا بمشاعر لم يفصح عنها من قبل، ولا يمكن بحال من الأحوال التعبير عنها بأي كلمات ولا بأي لغة.

أجل!.. إن نغمة وصوت الأذان عندنا، النابع من عواطف وأفكار الموسيقيين السابقين الكبار أمثال "العطْري" و"دَدَه أفنْدي"، وأصوات التكبير والتمجيد والتهليل وأسلوبها وطعمها وجمالها، هو اللسان الخاص لهذه الأمة،

ولغتها ذات الأبعاد المتنوعة الكثيرة السارية في عروقها. هذه الموسيقى التي تهز عواطفنا وتعبر عن مشاعرنا كأنها نغمات تهبّ على أرواحنا من آفاق ما وراء الزمن.

المؤذن بهتافه المتلاحق وكأنه يصدر أوامر، والإمام الذي يرتجف صوته ويئن بكلمات سماوية، وجماعة المصلين الذين يهدرون معا مثل أوركسترا... كل هذا يجري بدرجة من الأصالة والمهابة ويبعث القشعريرة في الأجساد. وعندما نتمتم بهذه الأصوات المرتفعة من المعابد ونهمس بها نحس من جديد بماض طويل مجيد، بل أكثر من هذا بحقيقة عالمية شاملة، ونظرة تمتد من الأزل إلى الأبد، فنغرق في جو من السعادة.

إن المعبد –ولا سيما في أيام العيد– يمثل بجوّه الرقيق الناعم كالحرير، والدافئ دفء عش الطير، والمملوء حيوية... يمثل صفاء المشاعر، وراحة الوجود والاطمئنان، وغاية العيش، ومغامرة الحياة، وجذور المعاني لأمّتنا، وأسس ثقافتنا وخلود ديننا، وموسيقى لغتنا، ونظرتنا للحياة، ورأينا في الدنيا وأسلوبنا ولهجتنا، ويهمس لنا ليرينا الطرق المؤدية إلى الإنسان الحقيقي.

إننا نشعر على الدوام بهذه الأصوات التي تتردد في جوانب المعبد، ونجد في هذه الأصوات الدافئة انحناء السماء نحو الأرض، وتكامل الأرض مع السماء، وغمز النجوم لزهور الأرض وورودها، وبسمة الورود لأهل السماء، ونحس بالتواصل السري والسحري الدائم بين السماء والأرض ونكاد نراه رأي العين.

هذا الصوت وهذا المنظر وهذا الهمس الذي ينقل كل شخص –حسب قابلية روحه وعمق خياله– إلى عالم آخر يبعث في القلوب المؤمنة صورا رائعة من الجمال ترتعش لها الأفئدة وترق لها العواطف. وعندما تنتهي الصلاة وتختتم السياحة السماوية، ويودع المسجد مؤقتا، يعود الإنسان إلى الناس من جديد كأنه آتٍ من ضيافة الرحمن بعد أن اكتسب بُعدا وعمقا

جديدين، ويحتضنهم ويبادلهم التهاني، ويتقاسم مع كل من يصادفه في السوق والشارع، وفي البيت ومكان العمل، وفي المدرسة والمعسكر هذه الهبات والأعطيات التي أخذها واستلمها وامتلأ بها. وهكذا تكتسب أجزاء الزمان المحدودة ضمن بضع ساعات، بدرجة سعة القلب وعلو الروح، صفة فوق الزمان، فكأنه اكتسب خلودا. ويتوضح لدى الإنسان كيف أنه وهو في الدنيا قد أسس علاقات عميقة مع الأبدية وما وراء هذا العالم.

ولا أدري كيف كان من الممكن وما الزمان المطلوب أو النظام الذي يمكن الاستعانة به لكي يحس المسلمون صغيرهم وكبيرهم بكل هذه المشاعر وهذه الأحاسيس والخيالات، وبكل هذه العواطف المتأججة، وتنعكس كل هذه الأصداء في أرواحهم، لو استعانوا بطرق أخرى أو سبل غير هذه السبيل. وأنا لا أعتقد إمكانية هذا الأمر ولا نجاحه في الوصول إلى كل هذه الروحانية الشفافة. لأن بهجة الأعياد وفرحتها وسعادتها ولذّتها لا تنبع فقط من هذه الحياة المعاشة، بل من أبعاد الحياة التي سوف نحياها في دار العقبى. فكل من يعش في خيال البرج العاجي لقلبه، يلقه هناك سحر سيحسّه وسيذوقه في المستقبل إلى جانب ما ذاقه اليوم. ويتجول في عالم رؤى المستقبل الأكيدة التي تبدو لعالمه الداخلي أكثر ملاءمة ودفئا ونعومة. والإنسان في الحقيقة مجبول على التطلع والانتظار، يقضي معظم عمره في انتظار عوالم الأمل وأخيلته. ومعظمنا في انتظار جنة مرتبطة بمعنى لصيق بماهيتنا وذاتنا. وليس هذا الانتظار نابعاً عن عدم استحساننا أو عدم قبولنا ورضانا عن الحياة التي نعيشها، بل انتظار لمفاجآت إلهية لا تستوعبها خيالاتنا كبَشَر، ولا خطرت ببالنا، ولا على أسماعنا، ولم نذقها. والأعياد ألسنةٌ بليغة تهمس بصواب هذا الأمر من منافذ قلوبنا إلى أعماق أرواحنا.

ما يذكّره الموت... وما بعده

يولد الإنسان لكي يموت... ويموت لكي يحيا... ويحيا لكي يعيش الحياة الأبدية... نأتي إلى هذه الدنيا فرادى... ونقطع الطريـــق الطويل لهذه الحياة فرادى... وعلى الرغم من جميع النواحي التي نشترك فيها مع غيرنا فكل واحد منا يعيش حسب قدره هو... يعيش قدره حسب البرنامج المخطط لـــه... ثم يودع هذه الدنيا دون أن ينظر خلفه، ويرحل لكي يعيش حياته الأبدية.

أجل!.. ما أن يخطو الإنسان خطوته الأولى في الحياة حتى يكون العد التنازلي قد بدأ بالنسبة له. بل إن هذا العد التنازلي يبدأ في بدء حياته وهو جنين في بطن أمه، أي يكون بداية النهاية له. ومراحل الطفولة والشباب والنضج والكهولة والشيخوخة ليست ســـوى منازل مختلفة لـــه. وحسب نصيب الإنسان وقدره إما أن يمر من جميع هذه المنازل ويستضاف فيها فترة، أو يجبر في نقطة مجهولة على ترك أحد هذه المنازل قبل بلوغ هدفه، مثلما يقذف أحد المسافرين من قطار متحرك في موضع ما قبل بلوغ القطار نهاية خطه، وهكذا تنتهي كل علاقة له بالدنيا. والذين تثار مشاعرهم وأفكارهم وتتقلب على لظى النار كل يوم من مثل هذه الحوادث في أثناء سفرهم هذا بسبب تفكيرهم بالمحطة الأخيرة، أو بسبب اقترابهم من خالقهم حقيقة، يحسون باليد الباردة للعدم وهي تجول خلف ظهورهم على الدوام، فتصفرّ منهم الوجوه، وترتجف منهم الأبدان، وهم يتوقعون نهاية سفرهم في كل لحظة، ويترنحون ترنح الأوراق الصفراء في الخريف، ويحسون بكل ألم في كل

آن بأنهم في قبضة الفناء والتحلل. وكلما مرت الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات زاد وجَلُهم وخفقان قلوبهم، لأنهم يسمعون في كل صوت نغمة من نغمات الموت. وبنسبة النسائم التي تغذي شجرة الزقوم في قلوبهم تراهم يموتون مرات كل يوم ثم يحيون.

عندما تدور الأيام، ويقبل خريف العمر، يحس الإنسان أنه قد هُجر من قبل الجميع، وتُرك من قبل كل الأشياء... كأن جميع الموجودات قد أدارت له ظهورها وتركته وحيدا... يحس أن العواصف الباردة تصفِّر وتعوي من حوله، ويقرأ فوق كل ورقة خريف صفراء كتابات قدره الحزين، ويسمع صرخاتها، فيرجع وفي حلقه غصة، وفي نفسه انكسار، ولا سيما إن كان لا يؤمن بالحياة الأخرى. فهو يتخيل على الدوام في أعماق روحه شبح العدم بعد غروب حياته، ويلف القلق والخوف كيانه، ويشعر بالعرق البارد للموت يتصبب من جسمه.

لا يعود ما يموج حواليه من حياة زاخرة، ولا ما يضمه الوجود من ألوان مختلفة من الجمال يثيره... لا زقزقة العصافير، ولا أصوات خرير الجداول والمياه، ولا ثغاء الحملان، ولا المناظر الخلابة للطبيعة التي لا يَشبع ولا يرتوي منها الإنسان... لوحات الجمال هذه لا تعود تعني عنده شيئا... لأن كل صوت يسمعه يذكره بالموت، وكل لوحة جمال باقة حزن له... كل ميلاد إشارة إلى الموت، وكل المولودين أسرى في يد الموت... كل فرحة انخداع وسلوى زائفة. في العالم الداخلي لهؤلاء تطارد الآلامُ الآلامَ. وكما يحدث في الكوابيس تجثم المخاوف على قلوبهم وتنعقد ألسنتهم على الدوام. نظراتهم متكدرة، ورؤوسهم مشغولة بالهموم... وبسبب اقتراب النهاية ينقلب كلامهم إلى هذيان... وقبل دخول القبر يتصورون أنهم محاطون بالعظام العاجية للقبر وبالحيات والعقارب. أحياناً يحسون بأن أنوفهم لامست العدم،

وأنهم يصغرون ويصغرون حتى يتحولوا إلى ذرات من التراب، حتى إن بعضهم يتأوهون قائلين: "ليت أمي لم تلدني".

أما إن أتينا إلى الذين زينوا قلوبهم بالإيمان، ونظموا موازين أفئدتهم حسب الدار الآخرة، وأدركوا أن "الإيمان نور وقوة، وأن الإنسان الذي حاز على إيمان حقيقي يستطيع تحدي الكون كله"، وعاشوا ضمن هذا التفكير والإحساس... هؤلاء تراهم على الدوام في جو روحاني، وهم يتذكرون مرحلة طفولتهم كنغمات نشوة، ويبتهجون بوجودهم وبحياتهم. يقضون شبابهم كأبطال إرادة وفضيلة وعفّة مثل النبي يوسف عليه السلام، ويزينون مرحلة نضجهم بسلوك يكون قدوة لمن يأتي بعدهم، ويكونون كأضواء الطريق مرشدين إلى الصراط القويم على الدوام. ويقضون شيخوختهم بجدية وعزم وثبات "أولي العزم"، السائرين باطمئنان يذكّر باطمئنان الأنبياء، وكأنهم يسيحون في شعاب الجنة.

وبينما يكاد يقترب غيرهم من الجنون عند تعرضه لخسارة فادحة، أو لأزمة ومشكلة كبيرة، يحتمي هؤلاء بإيمانهم وآمالهم ويجنون ثمارها، ويحسون ببهجة وجودهم هنا وغدا في حياة أبدية في الآخرة، فيقضون حياتهم وكأنها أبيات من شعر جميل، أو كأنهم يسبحون في عالم من الخيال، إلى درجة أن أي إشارة إلى الله تعالى وإلى الدار الآخرة ينقلهم بمنطاد سحري إلى سياحة روحية خارج هذه الآفاق... إلى أعماق الفضاء. وبنسبة استسلامهم لمشاعرهم الفوارة ولسحر أفكارهم، نرى أن كل روح مؤمن يبتعد عن أسر المادة والجسم ويفتح أشرعته على الفضاء الرحب للروحانية، ويحس بجميع المشاعر الرومانسية التي تفوق كل تصور لعالم فوق هذا العالم المنظور.

أجل!.. ما أجمل المشاهد التي يشاهدها قلب كل مؤمن في هذا المعرض المليء بالأسرار... وما أكثر الخوارق التي يطلع عليها، وما أخفى الأصوات التي يسمعها، وما أكثر الأمور غير الاعتيادية التي يأتي وجها لوجه معها، وما

أكثر ما يتلقى من مديح من أنواع الجمال التي تحييه. وكم من مرة يُسحَر بمجموعات وقطوف من الأصوات، فيكاد يغشى عليه. وكما في الأحلام يستطيع الوصول في لحظة واحدة إلى كل ما يراه أو يسمعه أو يفكر به، ويحس بنفسه في غمرة شلال من السعادة والبهجة... يحس بكل هذا فلا يرغب أبدا في انتهاء عمره... ليس مثل عباد الدنيا، بل لكونه يصل إلى أنواع من الجمال الحقيقي وراء أستار الوجود، ولا سيما إلى الترددات والموجات المختلفة لصور الجمال المطلق.

والحقيقة أن هؤلاء، بفضل بذرة الإيمان في قلوبهم، لا يشبهون الآخرين الذين يخيم زقوم جهنم على أرواحهم، لأنهم يواجهون على الدوام عالم الآخرة بمناظرها الخلابة، ويتخيلون أنهم يتنـــزهون في سفوح الجنة التي يمكن رؤية الحق تعالى منها، ويعيشون حالة تكاد تتحد فيها الدنيا بالآخرة، والروح مع البدن، والمادة مع ما فوق المادة وما وراءها.

وعندما يأتي اليوم المرتقب الذي ينـــزاح فيه الستار عن العالم الآخر، تظهر بذرة جهنم الموجودة في الفكر مثل كابوس أسود يخيِّم فوق كل جانب، وتثور ثورة حمم البركان، فترتعب منها الأرواح، وتنتشر كضباب وكدخان أسود فوق جميع الآفاق، وتتحول إلى عذاب يكوي النفوس، وإلى مصيبة تنهمر كالمطر فوق الرؤوس. بينما تتحول بذرة شجرة طوبى الجنة الموجودة في القلوب المؤمنة إلى شجرة باسقة ذات أغصان متشابكة تبتسم للقلوب التي نمت فيها وترعرعت وبسقت، وتتعطر بالرَّوْح والريحان، وتنقل كل من تَمَسّك بأغصانها وأوراقها -مثل مصعد ســـرّي- إلى الطمأنينة والراحة والرضوان وإلى الأبدية وإلى الجنة، وترفعهم إلى الأفـــق الذي يشاهدون منه الجمال الإلهي. والخلاصة أن البذرة التي تحملها كل زمرة في قلوبها، تنمو حتى تعكس بشكل مفصَّل كل ما يختبئ من معان في هذه القلوب، وكل ما تشاهده وما تعيشه كل زمرة، وترى كل شيء عيانا بيانا،

ولا سيما عندما ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۞ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾(المدثر:٨-١٠) أو ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۞ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير:١١-١٤).

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۞ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس:٣٤-٤٢). ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيرًا ۞ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾(الإنسان:٤-٥).

في ذلك اليوم المذهل الذي يصبح عالي الأرض سافلها، وتنقطع فيه الروابط بين النجوم، وتنتشر يمينا وشمالا كحبات مسبحة، يكون قد آن الأوان لكي تنمو بذور جهنم الموجودة في الأدمغة، وبذور الجنة المستقرة في القلوب. أجل... ففي جانب نرى الصورة المرعبة الآتية: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتْ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۞ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۞ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۞ فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۞ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾(الفجر:٢١-٢٦)، ومن جانب آخر نرى البشارة العظمى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر:٢٧-٣٠).

وطوال هذا الطريق يحس الإنسان بنشوة النعم وجمالها، أو بقبح المصائب وعذاباتها... بالنسائم الرقيقة الهابّة من الجنة... أو بريح السَّموم الصادرة من جهنم والتي تكوي حتى العظام: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۞ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾(القيامة:٢٢-٢٥). فأما الفئة الثانية فيقال لها: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ

ذي ثَلاَث شُعَب ۞ لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْني منَ اللَّهَب ۞ إِنَّهَا تَرْمي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۞ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾(المرسلات:٢٩-٣٤).

أما الفئة الأولى فلها البشـــارة الكبرى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ ۞ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(المرسلات:٤١-٤٤).

أجل!.. ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾(الأنبياء:٩٧-٩٨) ﴿إِنَّ الَّذِيـــنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۞ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْـــتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۞ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(الأنبياء:١٠١-١٠٣).

ثم هناك فرحة المتقين عندما يأخذون كتبهم بيمينهم، فرحة تلف كيانهم وتنطلق كصرخات فرح وحبور وحمد وشكر: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۞ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾(الحاقة:١٩-٢٩). أما الذين أوتوا كتابهم بشمالهم فهم -كما ورد في الاية أعلاه- يئنّون في حسرة أليمة ويتأوهون.

أما المجرمون فهم في ضلال وسعر: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ۞ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾(القمر:٤٧-٤٨). أما المتقون فهم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـــاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾(القمر:٥٤-٥٥).

النعم المنهمرة كالمطر، والتي لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطر

على قلب بشر من جانب، وجهنم التي تسمع لها شهيقا وهي تفور وتكاد تميز من الغيظ من جانب آخر: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۞ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ۞ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۞ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾(ص:٤٩-٥٢) ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ۞ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۞ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾(ص:٥٥-٥٨).

بعضهم في فرح وحبور، لأن النعم تنهمر فوق رؤوسهم، وبعضهم في ترح وغمّ وهمّ: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۞ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۞ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ۞ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۞ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾(الواقعة:٢٧-٣١) ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۞ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۞ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ۞ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۞ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (الواقعة:٤١-٤٥) ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾(الفرقان:٢٤).

وبينما تمتلئ قلوب هؤلاء بلذة النعم المهداة لهم، تلهج ألسنتهم بالحمد: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:٣٤-٣٥).

الأفق الذي يبرق

عندما يصارع الضوءُ الظلامَ يصل إلى عمقه الحقيقي... والجمال يظهر بشكل أفضل عندما يحيط به القبح... كما يظهر تفوق الأخيار عندما يكونون بين أشرار، على الأقل بالنسبة لبعضهم. وعندما يكون المجتمع في حاجة للأمن والطمأنينة يدرك بشكل أفضل حاجته الماسة إلى هذا الأمن ولأجله يموت و يحيا. ولا يعرف طعم الراحة إلا من ذاق مشقة التعب والإرهاق، كما لا يعرف قيمة الجنة إلا من ذاق أهوال المرور على الصراط. أحلك وقت للظلام هو في الوقت نفسه بشائر أنوار الفجر. والليل يحمل جنين نور النهار، ويحمل برد الشتاء وثلجه جنين الربيع. وعندما تنتهي الأسباب ولا يعود لها أي تاثير تتوجه القلوب إلى صاحب القدرة اللانهائية. وحسب قاعدة "المشقة تجلب التيسير" فإن المشقات تفتح أبواب اليسر على الدوام.

وفي هذه الأيام التي نتقلب فيها في دائرة مفرغة من الصعاب والفوضى وعدم وضوح الرؤية نعرف مدى أهمية الطمأنينة والراحة، ونعرف قدر النور بعمق أكثر، ونرى بشكل أوضح وأعمق جمال الإيمان وجمال العبودية لله، ونشعر في وجداننا بالثقة والاطمئنان الحقيقي الذي ينبع من الإيمان. نحس بشوق أكبر نحو الخير وبازدراء أكثر نحو الشر. ولكي نتطهر أكثر نستحم في شلالات هذه الأيام المضيئة، ونحنّ إلى شهر رمضان، ونشتاق إليه مرة أخرى.

من يدري كم مرة رأينا وعشنا شهر رمضان، ولكننا في هذه الأيام التي أحاطت سلبيات مختلفة بالأمة، بدأنا نعيش أيام غربة ولوعة وقسوة تكاد

تقصم ظهر إرادتنا وعزمنا. ومن كثرة ما تعرضنا للهجوم وللإهانة وللظلم في غمار هذا الجو القاسي الذي تحولنا فيه إلى غرباء في أوطاننا، أصبحنا نتوقع في كل يوم اعتداءً جديدا، وبدأنا وكأننا تعودنا على أن نكون مظلومين. وقد يعود هذا إلى الانسياق العبودي لدينا. هنا نفتح صدورنا لربنا وندعوه بإخلاص وبحرقة متضرعين إليه: "يا ربنا!.. يا مسبب الأسباب!.. بعد تجهم الأعداء وتجاهل الأصدقاء مع ضعفنا وعجزنا فقد انتهت ونفدت الأسباب... لقد أحاطت بنا الحيرة ونحن نسلك الطريق إليك مثلما حدث لسائر السائرين في هذا الطريق... لا تدعنا وحدنا، ولا تجعلنا من منكودي الحظ من المتعثرين والوحيدين في الطريق يا رب!" نقول هذا ونتأوه. وبقدر الآلام التي نتعرض لها، ونتجرع غصصها، ندق باب رحمته بيد العجز والحاجة... ندق بابه فقط لا باب غيره، وننتظر منه توجهه والتفاته إلينا، لأننا نوحده ونثق به ونتوكل عليه. ولا أذكر أننا توجهنا في شهر رمضان آخر، وعشنا بمثل هذا العمق الذي أحسسناه في قلوبنا، وقد لا نعيش مثله أبدا.

أجل!.. كم من مرة أدركنا هذا الشهر المبارك، وكم من مرة تعرضنا إلى نسائمه المحملة بالكرم واللطف، وكم من مرة حاولنا كأمة أن نقيّم هذا الشهر المبارك بأيامه المجيدة ونستفيد منها كما يجب. نتذكر تلك الأيام التي انتشرت فيها الحرب والضرب، وغطى الضباب والدخان على كل شيء[1] ونتذكر أيام شهر رمضان الحزينة التي كانت تبرق وتلتمع مرة وتنطفئ أخرى مثل صواريخ الاحتفالات... في تلك الأيام الحزينة من شهر رمضان التي كان الفقر المادي والمعنوي فيها متداخلا بعضه في بعض ومتراكما، ربطنا عزمنا بآمالنا مترنمين ببيت الشعر الآتي:

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى أيام الفوضى والاغتيالات المتبادلة بين اليسار المتطرف واليمين في تركيا في السبعينيات التي قاست منها تركيا كثيرا، ولم يعد هناك أمان للنفس، وأدت في النهاية إلى الانقلاب العسكري في ١٩٨٢. (المترجم)

عندما يتجلى الحق يكون كل شيء سهلا ميسورا،
يخلق أسبابه في لحظة ويهبه إحسانا منه وفضلا...

كنا في ترقب أيجابي ننتظر انفراج بـــاب غير اعتيـــادي بين الإفطار والسحور... كان شهر رمضان آنذاك شـــهرا فعالا وحيويا... ولكن يتيما في الوقت نفسه.

شـــهور رمضان تلك كانت من جانب متشابهة مع شـــهور رمضان الأخرى وغير متشـــابهة كذلك. كانت فيها فصـــول من خيبة الأمـــل والتوجس... طلعت علينا تلك الشهور وأشرقت... ثم غابت وغربت بعد أن أهدت لنا -مثل نجوم السحر- أغنية وداع حزينة.

لا شـــك أن كل شهر من شهور رمضان رفرف بطعمه الخاص فوق رؤوسنا بصوت رقيق كرفرفة أجنحة الملائكة، وأهدى لنـــا نورا من أنواره التي قد نستطيع حدسها أو لا نستطيع، ثم ودعنا ورحل. والقلوب اليقظة التي تستطيع سماع هذا الصوت في أعماق وجدانها تكون كمن تهرع على الدوام نحو ساعة حظها وسرورها، وكأنها تتوجه نحو شـــهر رمضان الذي يحمل معه بشرى الولادة الأبدية وتنصت إليه.

أحياناً يكون الإنسان -حسب تلك الأحوال- مرتبطا بالمعاني التي تلهمها تلك الأيام وتلك الليالي، فيحس بهدوء وراحة وكأنه يعيش حياة متناغمة وموزونة وكأنه قد انفصل من جو هذا العالم المملوء فسادا وتلوثا. هذا الفساد الذي يبعث القيء في النفوس. كأنه يمشي بكل فرح نحو أفق مشرق مملوء بالأمل، لا يرى من حوله سوى لوحات الجمال والفرح، ويرى الحياة التي يعيشها مملوءة بالنظام. كأنه طير سابح في الفضاء بكل هدوء وراحة لا يعكر صفوه أحد. وأحياناً يعيش انهزاما داخليا وكأنه في نهاية خريف الأمل والبهجة، قد تصدعت إرادته، وانكسرت عزيمته وضاق أفق

أمله، وهمت روحه، وبدأ بالتفكك والانحلال داخليا، وبينما كان بروحه ومعنوياته طيرا سابحا في الأعالي إذا به يخلد إلى الأرض.

والآن هناك الكثير من الضغوط وأنواع من الإكراه والظلم والتحكم والاستبداد، مما يسَّر لنا إمكانية اكتشاف ذاتنا. أجل!.. فكما يشعر من يحمل في كل عضو من أعضائه جرحا أو ألما شعورا قويا وحادا من الألم، أي يشعر بالألم في كيانه كله، كذلك حالنا نحن الذين نعيش منذ سنوات عهدا من الظلم والتحكم والطغيان والغدر، فقد أدّى هذا إلى انتشار وعي صامت ولكنه عميق... وعي تدريجي ولكنه مستمر وقوي ومتصف بالعزم بأن الحق لا يُهدى ولا يُتفضل به، ولا يُتصدق به من قبل أحدهم. لذا نمدّ إلى شهر رمضان أيدينا في جو من الإشراق الروحي لكي يفتح لنا بابا نحو أيام جديدة مضيئة للمستقبل، ولكي نتوجه ونرجع إلى ذاتنا وهويتنا بشكل يشبع العين والقلب، وبِصَمْت الأنهار الجارية بهدوء وبمهابة، وبرقة النسائم المنعشة التي تهبّ بكل رفق. والذين يشاركوننا هذه العاطفة والفكر يكتفون أحياناً بالتمهل والانتظار مع أنهم يملكون قابليات كبيرة وإمكانات واسعة في مجالات عدة مثل الطائر الذي يظل محلقا في مكانه بتوازن دون أن يرفّ بجناحيه، وأحياناً لا يستعملون -لحكمة ما- العديد من البدائل المتاحة لهم، ويفضلون انتظارا فعالا وليس انتظار غفلة. ونراهم أحياناً وهم يتوجهون بحيطة وجدية تفوق ما كنا ننتظر منهم نحو المبادئ التي عشقوها وارتبطوا بها بقلوبهم.

يتوجهون إلى الله تعالى بالصوم وبصلاة التراويح وبالعبادة مثل توجه الملائكة الكرام... يتوجهون دون توقف بكل إخلاص وبذلّة شديدة وبرقة بالغة... الدموع في أعينهم... والرجفة والخشية في صدورهم.

هؤلاء الأبطال الذين ينشرون النور والضياء حتى الصباح مثل الشموع المحترقة، ويجاهدون ويحاربون الظلام، والذين تركوا أمر العيش من أجل

النفس ونذروا أنفسهم من أجل العيش لهداية الآخرين... هؤلاء بيدهم وسائل ووسائط نفخ في روح هذه الأمة وفكرها، وبالبراهين المستخلصة من لب وعصارة ماضينا، لا يفترون عن محاولة إعادة تلك الأيام المجيدة دون يأس أو كلل. ونحن نثمن جهودهم هذه بجهود أولي العزم من الناس... هذه الجهود المباركة تجعل من وقتهم وزمانهم هذا زمنا ساميا، وليس كشريط زمني قصير ومحدود. فمن ناحية ماهيته ولبّه وجوهره وبالألطاف الإلهية المنهمرة عليهم يصبح هذا الزمن متصلا بأقدم القديم وبالعهد الذهبي المجيد من ماضينا من جهة، ومن جهة أخرى ممتدا نحو الأبدية. حتى إننا لو نظرنا إليه بنظرة الروح المرتفعة فوق الزمان والمكان، ورصدناه بمرصد الروح، لرأينا بكل بهجة ودهشة كيف أن العديد من المستحيلات تتحقق بفضل الإيمان، وتتم به.

من يدري كم من الأمور المخفية والسرية تكشف عنها كلَّ يوم مثلُ هذه الرؤى، وتفتح الأبواب المطلة على الحقائق أمام الذين يملكون مثل هذه الأسباب، وتهديها لنا، وتنفث الانشراح والبهجة في قلوبنا المهمومة، وتنقذنا من الارتباط بأنفسنا وبأحوالنا، وتنقلنا إلى الجو المتفائل للإيمان وللأمل.

شهر رمضان أنسب موسم للدعاء والمناجاة والتوجه إلى الله وأفضل منبع لتداعي الأفكار والمشاعر. ففي جوه الجميل الملون بألوان قوس قزح تتماوج القلوب كتماوج رائحة البخور من المباخر، وتحتفل به الأرواح في سحر كل يوم، وتغرد في بساتينها وخلجانها مئات البلابل. وفي الجو المضيء لشهر رمضان لا نسمع في كل حال من أحوالنا، وفي كل طـــور منها وفي كل عاطفة من عواطفنا، وفي كل عبادة من عباداتنا بعض الأصوات وبعض الكلمات وبعض الأفكار والملاحظات من ماضينا المجيد، بل كم من نداء آت من وراء الأفق نحسها ونسمعها، ولا سيما إن كان شهر رمضان مثل شهر رمضان عامنا هذا الذي جاء بعد عهد طويل من الإمساك، والذي

مزق السكون المخيم علينا منذ قرون!.. أما نحن الذين نؤمن بأن شهر رمضان منبع لمثل هذا النور، فإننا نصل إلى مثل هذا التناغم لا بنسبة ضآلتنا وقلة قيمتنا، بل بنسبة عظمة شهر رمضان وبركته، وبنسبة وسعة رحمة ربنا، ويأخذ كل شيء مكانه الطبيعي، حتى نصل إلى عمق أفقي وتبلغ قلوبنا سعادة الشعور بالقرب من الحق تعالى، وترتعش جوانحنا أمام تجليات رحمته، ونشعر بنسائم الأنس به وهي تحيط بنا من كل جانب، فنقول كما قال الشاعر:

يا رب!.. عدمُ معرفتك حسرة،
والقرب منك جمرة نار،
جمرة في صدورنا،
تفوق جمرات نار المواقد...
أما عشقك... آه من عشقك...
إنه الجنة الحقيقية...
ماذا لو أحييتني وبعثتني،
بعشقك يا رب!..

نكرر مثل هذه الأبيـــات ونعيد النظر في توحدنا وتكاملنا مع أفقنا ومبدئنا، ونتلاءم مع هذا الجو إلى درجة أننا نفرح فرح الأطفال الأبرياء من جهة، ومن جهة أخرى يستطيع روحنا الحساس سماع ألف آهة في مركز عالم ذي قطبين،[1] والعيش في ثنائية تعادل فيها آلام روحنا أفراحها، وقلقها بهجتها، وآمالها -المستندة دوما إلى الحيطة والحذر- صامدة وقوية، ومخاوفها في يد الرجاء. ولكننا نتوجه دائما وأبدا بمشاعر عميقة تستهدف التوحيد من أفق إلى أفق بروح مرتجف تكاد قبته تنفجر من حمل مشاعره وتتفتت.

(١) كان هذا قبل انهيار الاتحاد السوفيتي. (المترجم)

أحياناً تقوم العين في الساعات والدقائـــق التي نعيشها في هذه الأيام المباركة بإفشاء أسرار عالمنا الداخلي بذرفها الدموع، فتعبر عن أفكار ما كنا نستطيع التعبير عنها بكل هذا الوضوح، فنفرح بهذا، ولكننا في الوقت نفسه نرجع إلى أنفسنا عندما نـــرى أن العين -بدموعها- قد تقدمت على الأذن والقلب، فيظهر أمامنا هاجس ألا تكون هذه الدموع خالصة له.

أحياناً تكون نسائم شـــهر رمضان من الرقـــة والأنس فوق كل توقع، فتمتلئ قلوبنا بأحاسيس لا نستطيع وصفها أو تقييمها، ونحسب وكأننا قد استسلمنا إلى تيار سري غامض أو أننا فوق جسر ينقلنا إلى الجنة. ولكن عندما ينقطع هذا التيار، وتنتهي سياحتنا هذه التي أوصلتنا حتى حافة شاطئ الميناء دون أن ندري، نحس بأننا نكاد نخرج ونُحرَم من طريق الجنة هذا، فنشعر برجفة تنتشر في أوصالنا. ولكن سرعان ما تتلقفنا تداعيات أعمق، وموجات أخرى أكبر وأقوى على غير توقع منا، فنجد أنفسنا وقد تجاوزنا حدودنا، ودخلنا بلطفه في شلالاته، ونستمر في هـــذه السياحة الأنفسية وكأن شيئا لم يحدث.

في كل ليلة من ليالي رمضان نهبّ من فراشنا وكأننا مقبلون على سفر بعيد، ونضع حظراً على النوازع الجسدية. وبمشاعر خفية ومقفلة على الدنيا ومفتوحة على "الحبيب" نتوجه إليه وحده، ونكاد نعدو من لهفتنا وفرحنا وشوقنا. وبالنسائم السحرية التي تهبّ علينا من حولنا وتحتضن كياننا وتلفه، نبتعد عن المشاغل اليومية وندخل في جو الآخـــرة. في مثل هذه الأحوال تنفث ساعات الإشراق هذه سحرها في أرواحنا، وتشعل في قلوبنا شرارة الخلود والأبدية. تحمل مثل هذه اللحظات من الأنس واللطف والحلاوة والصدق بحيث أن كل ثانية منها بل كل ثالثة كلما توزعت وانتشرت وتعمقت في حنايا ضلوعنا، نحس وكأننا دخلنا إلى عالم الوصال، إلى درجة

نتخيل فيها أن قبة وجودنا تكاد تنشق وننتقل إلى العالم في الطرف الآخر. وهذه وتيرة طبيعية كما قال الشاعر:

يا قلب!.. صاحبُ النفس هو الذي طلبها...

لم الحزن؟ هي ليست لي وليست لك...

كم تكون حلاوة هذه الدقائق وهـــذه اللحظات في العمر ضمن هذه المشاعر اللدنية، حتى إننا قد نشعر بالامتعاض من مرورها السريع، ونتمنى دوامها ونقول: "ليت مثل هذه اللحظات الحلوة من شلال الزمن لا تسيل بمثل هذه السرعة، ويا ليتنا كنا نملك الإحساس بها بكل ثانية أو ثالثة أو عاشرة، مثلما يحس الإنسان بحلاوة شراب بارد في كل نقطة من النقاط التي يمر عليها".

تشرق الشمس في كل يـــوم على مشاعرنا هذه. وعندما يرتفع الأذان فوق المآذن في الظهر تتداعى هذه المشاعر مرة أخرى. وكل غروب يهب لأرواحنا أقداح الفرح والحزن. وتلفنا كل ليلة بسحر الخلوة، وتفتح مغاليق ألسنتنا لنبثّ لواعجنا، فيسرع كلّ منا إلى سجادة الصلاة لينفس عن حسرته وعن لواعجه وعن فرحه... يئن أحياناً، ويصرخ من الفرحة أحياناً أخرى.

وهكذا يمر شـــهر كامل في أفق فكرنا بنفس الروح وبنفس المعاني التي تبحث عن طرق الارتباط به تعالى... يمر الشـــهر ويمضي على الرغم من توسلاتنا وضراعاتنا بألا يتركنا. ولكن ما أن يغيب هلاله حتى تهل علينا شموس العيد التي تنير آفاقنا وتملأها نورا وضياء.

مشاعر العيد

العيد هو عصارة شهر رمضان بكامله، ولبّه.. وهو يقبل علينا وينثر على رؤوسنا هباته من وراء هذا العالم، فإذا هو بشرى البداية في ضمن النهاية. إن الإحساس بهذه البشرى يختلف من فرد لفرد ومن مجتمع لمجتمع. فبمقياس الاحساس العميق بشهر رمضان الذي مضى وانقضى، وبمقياس تلون القلوب بلون هذا الشهر، وانصباغها به، وبمقياس سمو المشاعر إلى ما وراء هـــذه الآفاق، بل إلى ما وراء الوراء... بهذا المقياس تكون بركة العيد ذي الدلال، ونشوته ومقدار سحره.

كل صوت وكل همسة ونأمة، وكل حركة في مثل هـــذا العيد الذي تستشعره القلوب في أعماقها، هي تعابير وإشارات مبهمة للأرواح، ولكنها سحرية إلى درجة أن العارفين بالحال يدركون –وإن كان بمقياس صغير– أنه ما من تأثير يفوقه. ويتعامل الشـــاب والشيخ، والمرأة والرجل، والعالم والجاهل، والتلميذ والأســـتاذ، والعامل وأصحاب الحرف من الذين يملكون منافذ وإن كانت صغيرة في قلوبهم مع سحر هذه التعابير بمقاييس مختلفة، فيتلون كل مجلس يوجدون فيه بعطر العيد، وتتلألأ البسمات فوق العيون وعلى الشفاه، وتُسقي القلوب بشراب الكوثر.

يهب العيد أنسه لكل إنسان في كل شـــريحة من شرائح المجتمع، ويتسلل إلى أعماق الجميع، ويُسمع صوته للجميع، ويعمل ما بوســـعه ليجذب الجميع إلى جوه. لا يُكره أحدا ولا يرتبط بالبروتوكولات، ولا يهدد من لا يجاريه في السر أو في العلن. ولكن يهرع الجميع إليه من كل قلوبهم بقوة الفطرة الســـليمة الموجودة لديهم، ولا يكتفون بالتهنئة، بـــل يعيشونها.

وبينما يعيش أصحاب القلوب المؤمنة الذين أدركوا العيد دقائقه وثوانيه النورانية التي تعدل السنوات، ويشعرون في جو الفرح والحبور المحيط بهم أينما ذهبوا وأينما تجولوا وكأن هناك أشياء تنثر على رؤوسهم من فوق وتصبّ، وتلفّ كل كيانهم، وتدخل إلى أعماق أرواحهم، تراهم يتوجهون إلى المصدر الذي وردت منه هذه الهبات، ويحسون بأن كل موجود حواليهم -حيا كان أم جمادا- يذوب أمام ناظرهم، وأنهم مدعوون إلى عالم آخر، فيعيشون على الدوام خارج حدودهم. والذين يشعرون بموهبتهم هذه في مثل هذا الجو الروحي، ويعرفون كيف يستنطقونها، يستطيعون بنسبة غنى الأفق المضيء لحدود معرفتهم، ولمدى حيوية عشقهم وشوقهم القيام بمزج مشاعرهم العميقة هذه، فيصلون هم ومن حولهم إلى عوالم من لذة العشق، وإلى أنس فريد في العلاقات الإنسانية.

كل صوت وكل نفس وكل تصرف في شهر رمضان يبدو لنا -في كثير من الأحيان- وكأنه أنغام الغناء المؤثر الرقيق لأمهاتنا قرب مهادنا. وأحياناً تبدو لنا هذه الكلمات وهذه الأفكار وهذه التصرفات من الرقة والحلاوة والليونة بحيث أننا في كل مكان نتجول فيه نحس أننا -بعد هذا الاستحمام الذي تطهرنا به- بخفة الطير، وأننا أصبحنا كأصحاب الأرواح الهائمة فوق المكان وخارجه.

وعندما يقابل الإنسان في العيد شخصا ويلقى منه معاملة طيبة، يتوقع مثل هذه المعاملة من الآخرين كذلك. فإن أضاف إلى هذه المتعة التي يلقاها طوال اليوم في عالم الحقيقة والواقع متعة تخيل وتصور ما سيلقاه من الآخرين يكون قد أنشأ عالما ساحرا جديدا خارج هذا العالم المحدود بأبعاده الثلاثة، وخارج هذا الزمان النسبي، عالما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يحط به عقل دنيوي.

أجل!.. أحياناً يكون العيد بالنسبة لهؤلاء الذين يتلبسون العيد تماما، بل يتحولون إلى معنى العيد نفسه بكل أحاسيسه ووجده ولهفته ومشاعره... يكون شيئا خارقا ونعمة مهداة من الله تعالى إلى درجة أن الإنسان يحسب أنه قد بدأ يتنـــزه في سفوح الجنة في يوم رؤية الله تعالى والنظر إلى جماله، بل إن الإنسان ليحسب أحياناً العيد شقيق روحه، أو نسخة ثانية منه، ويحس أحياناً كأن للعيد أجنحة مصنوعة من ريش الملائكة، فيشعر في كل مكان يتجول أو يتنـــزه فيه بنفحات هذا الرفيق الخفي وشوقه. صحيح أن العيد -بمقياس ما- ينطق كل أحد بمنطقه، ويظهر حكمه على الجميع، إلا أن له تأثيرا آخر وتأثيرا متميزا على بعض الأرواح.

أحياناً يتحول العيد بأصوات التكبير المرتفعة من المآذن، وبالأنين الأخروي للمحاريب، ويسمو إلى شيء آخر، بحيث إن الكثيرين يشعرون في تلك الساعات المباركة كأن جميع معاني السماء وعصارتها تنهمر عليهم، وأن أسرار العالم الآخر بدأت تهبّ كغيث مدرار، فيشعرون كل آن وكأنهم يتجرعون كؤوسا من جو الجنة ومن رحيقها.

في كل عيد تقريبا نتخيل -حسب قوة العوامل ونسبتها التي تثير مشاعر الفيوضات الربانية عندنا- وكأن العيد قبة محاكة من النور والألوان والمعاني والروح فوق رؤوسنا، وكأننا نستطيع مشاهدة اللانهاية من المنافذ الصغيرة أو الكبيرة الموجودة في هذه القبة. وبفضل هذا الأفق الواسع الذي يهبه الإيمان للمؤمنين يفكر المؤمن كيف أن هذا الزمان والمكان المحدودين يملكان أبعادا عديدة. وكمثال الملائكة التي تملك أجنحة وأبعادا عديدة، ننتقل بها -وإن كنا محدودين بزمان ومكان معينين- بمشاعرنا وأفكارنا من خلال مرايا عديدة إلى الماضي وإلى المستقبل وكأننا ننظر من خلال فانوس الزمن الحالي، فنعيش في آن واحد أزمانا عدة، وفي أماكن عدة. وأحياناً تتوسع هذه الحال فتضم آخرين إلينا، ونقوم بصفتنا مؤمنين نحمل في وجداننا بذرة ونواة

الإيمان بوجود الجنة، فنتخيل أننا نرفرف بأجنحتنا فوق تلال الجنة مع الأرواح، ونتوجه معها نحو اللانهاية. وأمام هذه الهبات التي تفوق لياقتنا يترنم كل واحد منا بأبيات شعر:

لستُ أهلا ولا مستحقا لكل هذا الإحسان،

فلمَ وهب لي كل هذا اللطف والإحسان؟

ثم نرجع إلى أنفسنا لنقول: إذن فهذا هو العيد. أحياناً، وبفضل فوران أيماننا بصاحب الرحمة غير المحدودة فإن طوفان الأضواء التي تتفجر من وجداننا وتنتشر حوالينا تقوّض كل الموانع والحجب المادية حولنا وتجعلها جذاذا، وتغرق كل جانب بالنور إلى درجة أن القلوب تحسب وكأنها تطالع أعماق السماء من خلال منافذ ذلك المرصد الكبير، وتطلع على أسرار الوجود الموجودة خلف الأستار، فتعيش –وهي في هذا العالم المحدود الضيق– في عوالم جديدة، وترتفع وإن كان بخيالها وروح الفضول فيها من هذا المكان ذي الأبعاد المحدودة، لترى بأن المكان هو في الحقيقة "لا مكان"، والجمادات أصحاب حياة وروح، والتجليات الإلهية ظاهرة عيانا بيانا، فنحس برجفة في كياننا، ونشعر بجانب رعشة المهابة هذه بحرارتها، ونقول ونردد مع الشاعر:

الشعور بقربك يا رب جنة

فاسعدني بهذا الشعور دائما وأبدا...

ونتذوق من طعم العيش في حماه، والانتساب إليه لذة لا توصف، ويبدأ بالبحث عن الطرق الموصلة إلى "حظيرة القدس".

نسرع إليه على الدوام... نعيش مرتبطين به... ونحتضن كل شيء من أجله... نتأمل الربيع بكل نشوة... نشم الورود... نكون في مسامرة مع الوجود... أحياناً نخاطب الجبال والتلال والهضاب والسهول... نعرض كل

صفات المؤمن تجاه الحياة وتجاه الوجود... ومن حين لآخر نقوم بدق بابه بأرق الأمنيات وبأنين صـــادر من الأعماق، ثم نضع جباهنا على عتبة بابه ونفضي إليه بكل ما يعتلج في صدورنا.

أصوات الأذان، وإقـــامة الصلاة، والصلوات، والأدعيـــة، والمنـــاجاة والاستغفار، والمراقبة الداخلية للنفس هي أنواع مختلفة من رموز التوجه نحو باب الله تعالى وإشاراته. ومع أن من المستحيل أن نعرف كيف ستُستقبَل هذه التصرفات وهذه الأصوات المرتفعة أمام ذلك الباب، في ذلك العالم الآخر، حسب نسبة الاخلاص والتقوى، وحسب وجود أنفاس الروح فيها، ولكننا نحس أحياناً بكياننا وهـــو يذوب في مثل هـــذه المشاعر والأدعية والمناجاة. أحياناً عندما نعجز عن التعبير عن الانفعالات التي تمور في أعماقنا، ولا نجد الكلمات المناسبة للإفصاح عنها، نركن إلى صمت فائر. وبانفعالاتنا الصامتة هـــذه ننتظر ونترقب جوابا من مكان ما لموقفنا الداخلي العميق واللدني. وعوضا عن صمتنا نترقب صوتا هادرا. ومع أننا لا نستطيع سماع هذا الصوت الآتي بوضوح، ولا نعرف أيأتي من الملائكة أم من الروحانيين أم من المنافذ المجهولة في وجداننا، إلا أننا نؤمن بأن مثل هذا الجواب سيأتي حتما، وسنسمعه من خلال الرعشة التي تصيبنا، فنرتجف من الخشية أو ننفس عن أنفسنا بدموع الفرح التي نذرفها.

في كل وقت تقريبا عندما نمر بهذه الحالة الروحية نحس أن نظرتنا للحياة تتبدل وتتغير. ويبدو لنا وكأن الوجود والحوادث تعيش مرحلة تغير وتميّز. وأمام هذا الوضع الخارق وغير الاعتيادي الذي نرى أنفسنا مندفعين إليه ندرك تماما أنه من المستحيل على البعيدين عن نور هذا الدين أن يسمعوا أو أن يفهموا ما نحس وما نسمع.

بفضل هـــذه المشـــاعر وهذه الأحاسيس تبدأ أحياناً الحقائق المقدسة والمبهمة التي ترسخت في أرواحنا في العهود المبكرة بشكل معارف بدائية...

تبدأ تتفتح كالأزهار النضرة في شعاب قلوبنا بفضل النور والإيمان اللذين يملكان قوة إنباتية. فنرى كيف أن تلك الحقائق المجردة التي قبلناها ببراءة الأطفال تعود إلى كياننا ووجودنا. هنا نذوق ونحن في دهشة طعم تحول هذه الأسرار النائمة في صمت في أعماقنا إلى براعم ثم تفتحها أزهارا.

والخلاصة أن العيد يولد كل مرة في سماء دنيانا بَدْراً، ويمتد في أفقنا مثل قوس قزح... وهذا النور النابع من وراء عالمنا يهب لنا فرحة تفوق فرحة ليلة عيد البحرية التي تأخذ فيها المدن عندنا كل زينتها، وتطلق فيها صواريخ الاحتفال إلى السماء. وفي كل ناحية من نواحي الدنيا يحلّ فيها هذا العيد يقوم الناس له تعظيما وحبا مثل قيامنا نحن. لأنه يهب لأرواحنا أحلى الأشعار بأجمل العبارات، وأرق الأنغام، ويفتح الأبواب أمام فضولنا بإيماءاته وإشاراته، ويهمس جو الآخرة في قلوبنا.